السكان كالجدري والطاعون . فاذا دامت الحال على هذا المنوال فلا يبعد ان يتضاعف عدد السكان بعد خمس وعشرين سنة أخرى لانهُ لا يلزم لذلك الاَّ ان تكون الزيادة السنوية اثنين ونصف الى اثنين وستة اعشار في المائة . واذا تمَّ ذلك والسودان تابعة لمصر وزاد سكان مصر حتى بلغوا عشرين مليوناً فقط تألَّف من مصر والسودان مملكة كبيرة فيها ٣٢ مليوناً من النفوس . اما القطر المصري فلا يسع عشرين مليوناً ويمونهم واما السودان فيسع اضعاف ذلك . واذا تمَّ ريّ الجزيرة وزرع القطن فيها وجد سكانهُ باباً واسعاً للرزق . لكن قلما يحتمل ان يهاجر الناس من مصر الى السودان ويتحملوا حرَّهُ الشديد واما هم بلاد الشام وساحل افريقية من مربوط الى آخر مراكش وكلها بلاد طيبة قليلة السكان

فتح الاندلس

(٤)

ورحل عن قرطبة عظماء اهلها الى طليطلة وبقي فيها اميرها مع اربعمائة فارس من حماتها فكمن مغيث حين وصل اليها بعدوة نهر شقنده في غيضةٍ فلما هجم الليل اقبل نحو المدينة بجندهِ وكانوا سبعمائة فارس وارسلت السماء برذاذٍ اخفى دقدقة حوافر الخيل فكمنهم ذلك من عبور نهر قرطبة ليلاً وقد غفل حرس السور فارتقاه بعض من جند مغيث وقتلوهم فدخلوا المدينة وملكوها عنوة . فبادر حاكمها الى الفرار في اصحابهِ وخرج الى كنيسة بغربي المدينة وتحصن بها فاقام مغيث على محاصرتها ثلاثة اشهر الى ان عرف موضع الماء الذي ينتابونهُ فامر اهل المعرفة بطلبهِ فقطعوهُ فايقنوا بالهلاك فدعاهم مغيث الى الجزية وهي قليلة او الاسلام[1] على ان يقبل في سلك الجندية كل من يعتنقهُ منهم مع اعطائهِ حصتهُ من الغنائم فابوا عليهِ شروطهُ[2] ولذا اوقد عليهم النار فاحرقهم وسميت كنيسة القديس جورج التي ثبتوا بها كنيسة الحرق[3] . وقد جمع مغيث يهود قرطبة الى الى مدينتها وجعل لهم السلطة النافذة لثقتهِ بهم

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣ (٢) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٨٩
(٣) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣ Coppé جزء اول صفحة ٢٩٢

واما من وجّه الى مالقه ففتحوها ثم لحقوا بالجيش المتوجّه الى غرناطة فلم يلاقوا ممانعة في فتحها لان سكانها كان اكثرهم من اليهود وقد استقبلوا جيش المسلمين استقبالاً حسناً ولكثرة عددهم فيها دعيت غرناطة اليهود(٤)

وبعد ان فتح زيد غرناطه ذهب عن طريق جاين ليلتحق بطارق . ومن المهم ان نذكر ان المسلمين كانوا يضمون اليهود مع قطعة من المسلمين الى القصبة التي يفتحونها لحفظها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين لحفظ ما فتح وصارلهم ذلك سنّة في كل بلد يفتحونهُ (٥)

وقد اتم طارق سيره الى طليطلة محاذياً الوادي الكبير وقد اختارها القوطيون عاصمةً لهم لتوسطها البلاد ومنعتها وهي مبنية على تلال سبع وتطل على نهر التاج

وقد كان من المنتظر ان يتاجز الاسبانيول العرب في طليطلة بعد اتخذالهم في وادي لكة اذ انها مجمع قواهم ولكن عظماءهم كان قد اسقط في ايديهم وعمّهم الخوف ولذلك لم يفكروا الا بالهرب فاعتصموا بالجبال

ولما اتى طارق الفاها خالية لكنهُ اشترط على من بقي منهم تسليم السلاح والخيول واذن لمن ودّ الرحيل عن المدينة بالهاجرة على ان لا يأخذ من امتعته شيئاً اما من عزم منهم على البقاء فقد حفظت لهُ املاكهُ وحريتهُ الدينية ودفع الجزية وقد طلب منهم ان لا يشيدوا كنائس جديدة دون استشارته ولم يسمح لهم بالمظاهرات الدينية اذ ربما انطوت على دسائس سياسية . اما نظاماتهم البلدية والقضائية فقد ابقيت كما هي(٦)

ولما بلغ موسى بن نصير ما فعلهُ طارق بن زياد وما اتيح لهُ من الفتح تهيأ للسير الى الاندلس وكان ذلك بعد ان مكّن قواهُ في موريتانيا ومهّد طرق المواصلات بينهُ وبين مصر وسوريا وجمع جيشاً قوياً للزحف بهِ وكان دخول موسى الى اسبانيا في مارس (ابريل) من سنة ٧١٢ (رمضان سنة ٩٣) اي بعد مرور سنة من قدوم طارق الى الجبل الذي دُعي باسمهِ . اما جيشهُ فكان يتألف

(٤) Coppé جزء اول صفحة ٢٩٤ (٥) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣
(٦) History of the Dominion of the Arabs in Spain by Condé الجزء الاول صفحة ٦٤ Coppé الجزء الاول صفحة ٢٩٨

من عشرة آلاف من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة وقد نزل بالجزيرة الخضراء والحق يقال ان موسى بقدومه لم يفتح البلاد اذ ان طارقاً كان قد بسط نفوذهُ عليها بل أكثر من الحامية ولذا نراهُ يقدم الى البلاد التي احتلها طارق قبلهُ الاَّ انهُ كان لهُ الفضل في اخضاع اسبانيا الغربية والبورتغال

وبعد ان احتل الجزيرة الخضراء سار الى شذونه وشريش وقرمونه ومنها بعدها الى اشبيلية فحاصرها وهي اعظم مدائن الاندلس شأناً واعجبها بنياناً واكثرها آثاراً وكانت العاصمة قبل ان دخل القوطيون اسبانيا الاَّ انها ظلت مركز الرؤساء الروحيين فحفظت بذلك لها المكانة الدينية . ومما فاقت بهِ على غيرها من نواحي الاندلس زراعة القطن فانهُ يحمل منها الى جميع البلاد الاسبانية والمغرب وهي على شاطىء نهر عظيم تسير فيهِ المراكب المثقلة يقال لهُ الوادي الكبير (٧) . فاستولى اشهراً عليهِ ثم فتحها واكثر فيها من اليهود

وبعد ان وطد النفوذ العربي في البلاد الغاضبة مما فتحهُ طارق سار الى اسبانيا الغربية والبورتغال وكان في زحفهِ على هذه الجهات يعتمد على فرسانهِ وقد احتل دون صعوبة Myrtiles وAssonoba وSible وBeza (٨) الى ان انتهى الى ماردة وكان اهلها قد صمموا على الاستماتة في دفاعهم ولم يلاق العرب بعد سقوط قرطبة دفاعاً مجيداً كدفاعها .وقد بنى ماردة اغسطس وفيها كثير من الآثار الرومانية منها قوس تراجان الذي دُعي بعد ذلك قوس سانت ياغو (يعقوب) وهيكلا مارس وديانا وملعب ماكسيمس والجسر الجميل البالغ من الطول نحو ٢٥٠٠ قدم المبني على ٨١ قنطرة وكانت تلقب برومية (٩) اسبانيا لما حصون منيعة وابراج عديدة واهلها ذو منعة وبأس شديد هاجمهم المسلمون مراراً الى ان اذعنوا . وذلك أن الجيش العربي المهاجم اظهر لهم هزيمةً فلحقوا بهِ وكان الكمين العربي مترقباً لهم فاطبق عليهم وارتدَّ الجيش الذي اظهر الهرب وفتك بهم فتكاً ذريعاً . ومما جعلهم ان يخضعوا الامداد التي قدمت موسى وعلى رأسها ابنهُ عبد العزيز والجوع الذي بدأ يفتك بهم . وقد اشترط عليهم موسى تسليم السلاح

(٧) راجع اشبيلية من كتاب معجم البلدان لابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي
(٨) راجع خريطة اسبانيا (٩) Coppé الجزء الاول صفحة ٣١١

والخيول وامتلاك اموال الخزينة العمومية والكنيسة والقتلى يوم الكمين والهاربين الى غسقونيا . وامر ان يحوّل نصف عدد الكنائس الى مساجد

وكان اشهر من أُسر في هذه المدينة الملكة Exilona (١٠) ارملة رودريك « لذريق » وهي سيدة مغربية اسمها الحقيقي الياتا Elyata تزوجت فيما بعد عبد العزيز بن موسى امير الاندلس ويدعوها العرب « ام عاصم » اما سقوط المدينة فكان في ١٠ غوز (يوليو) سنة ٧١٢

وبينما كان موسى يتقدم الى الامام ثارت اشبيلية وقتلت بعضاً من جند العرب فاقتصّ منها عبد العزيز وشدد النكير عليها وبذلك حفظت مؤخّرة موسى من القلاقل ومن ثمة سار الى طليطلة فاستقبلهُ طارق في وجوه الناس الا ان موسى وبخهُ وعزلهُ لعدم اطاعتهِ اوامرهُ . ولم تكن نتائج السياسة التي سار عليها طارق مما تحمد عقباهُ اذ جعل بين العرب والبربر فراغاً واختلافات تحت بمكروب السيادة المتمكن من العرب اصحاب الدولة . ولكن الخليفة امرهُ بان يطلق سراحهُ اذ لا يجوز في عرفهِ ان يغمد سيف من سيوف الاسلام !

ولذا اظهر الرضا عنهُ واقرّهُ على مقدمتهِ وامرهُ بالتقدم امامهُ في جيوشهِ فارتقى جبال Molina زاحفاً الى سرقسطه وهي من اعظم مدن الشمال الشرقي من اسبانيا وقد اخذ اسمها من اوغسطس قيصر الذي شيدها وهي مبنية على ضفاف الابرو وتتشعب منها طرق المواصلات الكثيرة . وبينما كان طارق يحاصرها احتل موسى سلامنكا واستوركا "Astorga" وقد اتاها بعد ذلك منجداً طارقاً في حصارهِ فافتتحاها وامرّ موسى على طلب جزية كبيرة دعاها الاسبان جزية الدم

وبعد ان خضدا شوكتها تفرقت جيوشها فاحتل موسى المقاطعة الواقعة بين الابرو والبيرنيه وتدعى كتلونيا Catalonia (١١) وبذلك تمّ لهُ التسلط على لريدة Lérida وبرشلونه Barcelona و Gerona و Huesca

اما طارق فاحتل طرطوشه "Tartosa" على الشاطىء الايسر من الابرو وبلنسيه Valancia و شاطبه Xativa و Denia وقد اوغلا في البلاد ولم يمرّا

(١٠) Coppé جزء اول صفحة ١٦٠ راجع Coppé ايضاً الجزء الاول صفحة ٢١٧
(١١) راجع خريطة اسبانيا

على موضع الا فتح عليها وكان موسى يوثق للناس ما عاهدهم عليه طارق وكان يود لو يقتحم اوره عن طريق الارض الكبيرة (فرنسا) حتى يتصل بالناس الى الشام لكن الخليفة امر برجوعه فحال دون ذلك الامل (١٢)

وقد استخلف موسى ابنهُ عبد العزيز على امارة الاندلس واقرهُ بمدينة اشبيلية وركب البحر وطارق معهُ (في ذي الحجة سنة ٩٥ اغسطس سنة ٧١٣) وكان معهُ من السبي ما يقارب الثلاثين الف رأس (١٣) والمائدة المشهورة (١٤) التي كان يحمل فوقها مصاحف الاناجيل اذا ابرزت في ايام المناسك وهي مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد وقد اصابها الفاتحون بطليطلة وكان يُظن ان لها قوة معنوية كتابوت العهد عند اليهود

وضبط عبد العزيز الاندلس بعد قفول ابيهِ وسدَّ ثغورها وأتم فتحها. وذلك انهُ سار الى مرسية Murcie الخصبة الجميلة وكان يدعوها العرب تدمير نسبةً الى القائد الذي وقف مدافعاً عن البلاد حين نزلوها وكان قد اشترك في معركة Guadalete الا انهُ هرب حين رأى ان لا مناص لقومهِ من الخذلان وقد ناوأ جند المسلمين لكنَّ العزيمة استمرت عليهِ في لورقا Lorca وغيرها من المدن. وكان تدبير هذا في قليل من اصحابهِ لا يفنون شيئاً فامر النساء بنشر الشعور والظهور على الاسوار في مدينة اريولة Orihuela فصبتها متشبهات بالرجال وتصدر قدامهن باصحابه يغالط المسلمين في قوته فتهيبوا لرأسهِ وعرضوا عليهِ الصلح فاظهر الميل اليهِ واخذهم بالوفاء بعهدهِ وادخلهم المدينة وسلمت القاطمة كلها من ويلات الحرب وسمَّة الفاتحين وصارت كلها صلحاً ليس فيها عنوة (١٥)

انيس ذكريا النصولي

---

(١٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٣٠ ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١١٧ — ١١٨ Le Bon جزء اول صفحة ٢٧٣ — ٢٧٤

(١٣) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١١٨

(١٤) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٧

(١٥) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٤